الفصل الرابع

إمارة باديس بن حَبُوس

(٢) من موت ابن نَغْزالَة إلى نهايتها

٢٦ - مؤامرة الوزير اليهودىّ ابن نَغْزالَة

ثورة صِنهاجة عليه وقتله

وإنَّ الخِنزيرَ - لعنه الله - لما رأى طغيان النساءِ، وكلُّ فرقة منهنَّ تُريد ولاية مَنْ تُرَبِّيهِ من أبناءِ السلطان، ورأى تغيُّر مولاه * [ق ٢١ أ] عليه وإمعانَ النايةِ فى مُطالَبته والازديادِ فى جاهِهِ، لم يَجِدْ فى الأرض مَهْرَبًا، ولا وجد إلى التخلُّص سبيلا، وشاوَرَ فى ذلك مَشْيَخَته من ذوى الرَّأى؛ فقال بعضهم: «انْجُ بنفسك، وقَدِّمْ جُلَّ مالِكَ إلى أىِّ البلاد أحْبَبْتَ، تَسْتَوْطنها غَنِيًّا أمِنًا!» فقال: «ذلك مُمْكِنٌ لولا أنَّ الرئيسَ الأجَلَّ، إن أرسلَ فىَّ إلى صاحب تلك الجهة، يقول: «ذهب وزيرى بأموالى: إمّا أن تصرفه علىَّ، وإمّا أن أفاتِنَك!» أتَرَى أنه يبيع الرئيس عنِّى ؟ هذا ما لا يجوز إلا أن أصَيِّرَ إليه من البلاد بحيث تقع الفتنة بينهما، ونأمن على نفسى عند الذى نصير إليه ولا يُمكنه إسْلامى. وأنا قد وضعتُ فى يده بلادًا ومجدًا كبيرًا!» فاتفَّق رأيهم على مُخاطبة ابن صُمادِح، وأنَّه الأولَى لجيرته وقربه من كلِّ أمْرٍ يحتاج إليه فيه.

وأخبرنى رسولُ ابن صُمادِح ابنُ أرْقَم، وكان قد تخيَّروه للرسالة [1] حينئذٍ، قال: حضرتُ يوماً مع المظفَّر - رحمه الله - وقد خرج إلى بعض متنزَّهاته والنايةُ معه، واليهودىُّ وراءه، حتى بصر النايةِ بحكيم كان للوزير، يهودىٍّ؛ فأمر بإهانته وإرجاله عن دابَّته بحضرة الرئيس، وتوقَّح فى ذلك، وأبلغ فى شتم اليهودىّ؛ فاستعظَم اليهودىُّ ذلك وقال لابن أرْقَم: «حسبك هذه الإهانة، ولا صبر عليها! فإن كنتم تستطيعون لى على شىءٍ، وإلاّ فلابدَّ مَن الترامى على غَيركم!» فقال له ابن أرْقَم: «أنت جديرٌ بالتثبيُّت فى هذا الأمر! وأىّ ضرورة دفعَتْك إلينا وبيدِك الرعايا، وإليك تُجبى الأموال؟ والسلطانُ لم يغيِّر عليك شيئًا أكثر من همزات هذا المُطالِب! فاحتَلْ بان تُصابرَ الأمور إلى أن يموت الشيخُ، لاسيَّما أنه قد أسَنَّ؛ وتُلقى يَدَك فى حفيده المُعِزِّ، وتبقى حالُك معه حسب ما كانت مع جدِّه؛ وهو أقْرَبُ إلى السلامة!» فقال له اليهودىُّ: «كنتُ أفعلُ ذلك لولا أنَّ المُعِزَّ صغيرُ السِّن * [ق ٢١ ب]، وله أُمَّهات وطبقات جَمّةٌ من النساءِ والحاشية. فكيف نرجو معهم الفلاح؟ والحال إذ ذاك تكون علىَّ أشدَّ لاختلاف أهوائهم. وقد صحَّ عندى أن الصبىَّ يحقد علىَّ ما قاله الناس

(١) أصل: «للرياسة».

من سَـقْي أبيه. وقد أَدَرْتُ هذه الْوجوه، فلم يتَّجه لى منها أَمْثلُ من الترامِي على المُعْتَصِم!»

فقـال ابـن أرقَم: «دخلتُ على المُظفَّر، وألقيتُ إليه من الكلام رمُوزًا، وقلتُ له: «أيَّدَكَ الله! تَيَقَّظْ! فإنك لم تَطْعَن فى السنِّ، ولا بلغتَ فيه مبلغًا يولد عليك الغفلة عن دَوْلَتك!» رجاءً منِّى أن يسـتَفْهِمَنى عن الكلام وأَقُصَّ عليه بَعْضَـه. فدعا اليهوديَّ وقال له: «انهضْ إلى ابن أَرْقَم وقلْ له: «لأىِّ وجهٍ قال لى الآن: تَيَقَّظْ!» واسـتَفْهِمْهُ عن ذلك!» فجاءَنى اليهوديَّ وأخبرنى بالقضيَّـة. فدهشـتُ لها وبِتُّ، ولم أجِدْ جوابًا. فاتَّهمنـى الخِنْزِيرُ، وخاطب بأمرى المعتصم وأشار عليه أن يُقعِدنِى عن الرسالة ويوجِّه فيها من يثقهُ؛ فسفر فيها رَضِيعَه وأَمَرَه بنسج الأمر معــه، وكيف الحيلة فى تصيُّر الدولة إليــه، وغرناطة معدن الجيش، وفيها من صنهاجة من لا يجوز هذا الأمر عليهم؟ وقال له: «لا تُدْخِل نفسـك والمُعْتَصِمَ فيما لا يتمُّ وتَفتضِحُ فيه مع المظفَّر، وهو صاحب الأموال والقدرة على الفتنة! وتخزى معه، وتكون سببًا إلى هلاك نفسك والفساد عليه!» فرأى الخنزير من رأيه أن يُخْرِجَ من البلاد كلَّ من يتوقَّع قيامَه.

وتخيَّر من كبار صِنْهاجة وغيرِهم من العبيد، الذين يخشــى معرَّتهم، أقوامًا، وأشــار على السـلطان بإرسـالهم إلى المعاقِل المُهِمـة، وصَكَّك لهم بها، وقال لهم فى سـرِّ الأمْر: «أنتم إخوتى، وقد أُخْمِلتُم معى، ورأيتمونى! وأرى من دولة هذا السلطان ما ينبغى لكم إنكارُه بأن يقدِّم عليكم من ليس منكم ولا شـأنه شـأْنكم، وتبقى ولايتُه عارًا عليكم وشنارًا ما بقى الدَّهرُ؛ وقد * [ق ٢٢ أ] نصحت السـلطان فى أمره؛ فلم يقبل منِّى، ولا يُقدر على مُضادَّته؛ والآن أتوقَّعُ على هذه البلاد الشريفة والمَعاقِل الفارهة أن يليها من قِبَل النابة مَن يشقى به الجميعُ، ولا نقـدر معهم على إمسـاك الدولـة، وتكون لهم الصولة علينا، ثمَّ لا مَهْـرَبَ إلا إلى يديه، فإذا أمْسَـكْنا معاقِلَنا وكان بنو عمِّكم بالحضرة، يتجسَّـر على تَبْدِيدكم، وكان أمره بعد ذلك هيِّنًا، متى أراد التغيير، قتلناهُ، ومتى ما سخط السلطانُ على أحَدِنا وأمر بنَفْيِه على يديه، لَجَأَ إلى مَعْقِل صاحبِه.» .

فقبل القومُ قَوْلَه، مع شَرَهِهِم إلى ولاية البلاد، وبادروا إلى ذلك. فأَخرج يحيى بن يِفْران إلــى مدينة المُنَكَّب، ومُسـكَنَ بن حَبُـوس المَغرَاليَّ إلى جيَّان، ومَن سِـواهُم إلى غيرها من القواعد. وزيَّن للسلطان أن ذلك من وجْه النَّظَر له، وأنَّه لا يحمى القواعد إلَّا كِبار الرجال، وأن المعزولين قد صَحَّ عنده غفلَتُهم وتضْيِيعُهُم، إذ كان لا يسمع من أحد إلا قوله فى هذه المَشابِه، لِثِقَتِه به.

وكتب [اليهوديُّ] إلى ابن صُمَادِح يُخبره بخروج القَوْم الغَوْغاء من المدينة، وأنَّه لم يَبْقَ فيها إلا من لا يُوبَه له، ويحصدهم سَـيْفُه إذا دَخلَها، وأنَّه مُتَهَيِّءٌ لفَتْح أَبوابها متى جسـر وطرقها؛ وضيع النَّظَرَ فى سائر الحصون غير القواعِد، وأهْمَل ما يَرْتَقِبُونَ به من الرجال والعُدَد على وجه الغفلة، حتى خَلَتْ.

والمُظفَّر، فى هذا كلِّه، لا خَبَر عنده إلَّا الإقبال على الشرب والدَّعة.

فلمـا خَلَت المَعاقِل، وصحَّ عند أهلها، بإهمالهم واحتجاب السـلطان عنهم، أنَّه قد مات لا مَحالـة، تصايَحت بعضُها لبَعْض، وخَلَّتْ بأقطارها؛ وافْتَرَصَها رجالُ ابن صُمادِح، وصاروا فيها حتى لم يَبْقَ منها إلّا حِصْن قَبْرَيْرة، على مقربة من غرناطة فى طريق وادى آش.

وأرسـل اليهـودىُّ على المقام لابـن صُمَادِح، يلـحُّ * [ق ٢٢ ب] عليه فى الإقبال إلى المدينـة، وأن لا مانِـعَ يمنعه. فالتوى عن ذلـك ابن صُمادِح، وجزع من الجسـر على مثل غَرْناطة، إلى أن اتَّسع الخَرْقُ وتَمادَى النفاق؛ وصار اليهودىُّ مُتَنَقِّلًا من داره إلى القَصَبة حِذْرًا مـن العامَّـة، حتى يتمَّ ما أمَّل؛ فأنكر ذلك الناسُ، مع بُنْيَانـهِ لحِصْنِ الحَمْراءِ على أنّه، إذا دخـل ابـن صُمَادِح البَلَد، صار هو بأهْلِه إليها، إلى أن تتوطَّد الحالُ. فأنفت العامَّة والخاصَّة لمكر اليهود وما اشتهروا به من تغيير الأحوال، ورأوا من الرُّتَب خِلافَ ما عهدوه.

ولِّلـذى أراده الله مـن هلاكهـم فـى يـوم السـبت لعشـر خَلَوْن مـن صَفَر [من سـنة ٤٥٩ هـ] ، استعمل اليهودىُّ الشراب تلك الليلة مع أقوام من عَبيد المُظَفَّر، كانوا قد عاقَدُوه واتَّفقوا معه، وبعضُهم فى السـرِّ يشـناُهُ؛ فأعْلَمهم بأمْر ابْن صُمادِح، وأنه واردٌ عليهم ومسوِّغٌ لهـم مـن القُرَى فُلانة وفُلانة من فَحْص غرناطة؛ فانتدب إليه أَحَدُهم ممَّن كان يكمن بُغْضَه، وقـال له: «قد عَلِمنا هذا! فأَخْبِرْنا عن تسـويغك هذه الإنْـزَالات، أَهُوَ مولانا حيٌّ أو ميِّتٌ؟» فردَّ عليه بعضُ حاشية اليهودىِّ، ووبَّخه على قوله: فأَنَف ذلك العبدُ وخرج فارًّا على وجهه [وهو] سـكران، يصيح بالناس ويقول: «يا معشـر من سـمع بالمُظَفَّر قد غدره اليهودىُّ! وهـذا ابنُ صُمادِح داخِلٌ فى البلدة!» فتسـامع لذلك الناس أجمـع خاصَّتُهم وعامَّتُهم، وأتوا عازميـن على قتل اليهودىِّ. فتحيَّل على المُظَفَّر حتى أخرجه إليهم، وقال: «هذا سـلطانكم حيٌّ!» ورام الرئيس تسكينَهم؛ فلم يقدر؛ واتَّسع الخَرْقُ على الراقِع. وهرب اليهودىُّ بنفسه إلـى داخِل القصـر، واتَّبَعَتْهُ العامّة حتى ظفروا به وقتلوه. وأحالوا السـيف على كلِّ يهودىٍّ بالبلدة، وحصلوا على عظائم من أموالهم.

واستأسـدت إذْ ذاك صِنْهاجـة، وطَغَـوْا بمـا صنعـوه علـى الرئيـس، مـع الفِتْنـة المُصْطَكَّـة * [ق ٢٣ أ] عليـه مـن كلِّ قطر. وكانوا هُم الوزراءَ ومُدَبِّـرى[1] الدولة؛ والمُظَفَّرُ مـن هذا كلِّـه تحت خوفٍ وذلٍّ، قد حقد عليهـم ما صنعوه بوزيره، من غير أن يَعْلَم بشـىءٍ من دواخِلِه، ولا صدق قَوْلَهم عليه، وسـائرُ أمره معهم بالمداراة والصبر، إلى أن تفتَّحت له البلاد، ورجعت طاعته إليه بما نَحْنُ نذكُرُهُ[2] بعد هذا إن شاءَ الله.

ولما مضى مُسَـكِّن إلى جَيَّان، على ما قدَّمنا ذِكْرَه، أَلْقِىَ فى طريقه عَمَّنا ماكْسَـن، يحمله الصِّقِلِّىُّ؛ فاسـتَنْقَذَهُ، ومشـى به إلى جَيّان، وقال: «لا فائدةَ أكبر من هذا: ابن الرئيس يكون معى حُجَّةً على ما أريدُه من مُلْكِ جَيّان أو غيرها؟ وسينقاد إليه الناسُ، ونحصل على عظائم!»

(١) أصل: «مدبرين» .

(٢) أصل: «ذاكروه» .

كالذى كان. فوَلِىَ جَيّان باسْمِهِ، وصار حاكِمَها مع بنى عمِّه. وحصَّل إذ ذاك من أموال اليهود فيها على ما لا يتحصَّل. وبقى ثائرًا على أفضلِ حال.

٢٧ - الحركة الموفّقة التى قام بها باديس لانتزاع وادى آش من أيدى ابن صُمادِح

وإنَّ المُظَفَّر، لما رأى ما نزل به من كَلَبِ العدوِّ وطَمَعِ الناس فيه، وما حلَّ به من كلِّ وَجْهٍ، جمع الناس وقال لهم: «ما تَرَوْن فى أمرِ وادى آش، وتصيُّرها إلى ابن صُمادِح، واستحوذِه على أنظارنا ؟» فأجابه قوّاده وجملةُ رجاله أن: «لا دواءَ لهذا، إلا أن تبذل الأموال، وتترك الدَّعة، وتُباشِر الأمر بنفسك!» فقال لهم: «مَثَلى ومَثَلُ ابن صُمادِح كمَثَلِ القُبَعة التى كان بإزائها عشٌّ إوزّة، فأعجبها بيضُها، فقالت: «لأحضننَّ هذا البيض، يكون خيرًا من متاعى!» فلما رامت ذلك، عجَزَت وقصُرَتْ جَنَاحاها عن التحضين، فلما رجعت إلى متاعها، وَجَدَتْها قد فسَدَتْ. وكذلك ابن صُمادِح: تعدَّى على بلدى، وسيخرج عنه وعن كثير ممّا كان قديمًا بيده!» فقَوِيَتْ نفوسُ الناس، وادَّرع الحزمُ والعزمُ، وتأهَّبَ للمسير، واجتمعت إليه الأجناد، [وفرَّق] فيهم العطايا. ونازَلَ وادى آش حتى حاصَرَها.

وكان فى أوّل الفتنة، للذى * [ق ٢٣ ب] رأى من قيام رعيَّته وخشى خلاف الجميع، قد وجَّه لابن ذى النُّون، صاحِب طُلَيْطُلَة، يعلمه بما دهمه من الأمر، ويسأله صِلَةَ يده به، وأنّه ما انصرف إليه من البلاد أعطاهُ منها ما أَحَبَّ واختار؛ فسارَعَ ابن ذى النون إلى ذلك، ولحق به، وهو على وادى آش قد حاصَرَها وقَرُبَ مَرامُها، واجتمع معه إلى أجْمَلِ هيئة وأتمِّ رتبة. وفى قَصَبة وادى آش ذلك الوقْتَ وزراءُ صاحب المَرِيَّة وأكابرُ رجاله. فاشتدَّ عليها الحربُ، وكَثُر الإنفاقُ، حتى إنّه انتهت النفقة عليها، على ما رأيْتُه مكتوبًا بخطِّ يد جدِّى - رحمه الله - ستَّةَ بيوت من المال دَرَاهِمَ ثُلُثِيَّةً، البيتُ منها ألفُ ألْفِ دينارٍ ثُلُثِيَّةٍ. وصار ذلك مَثَلاً فى الناس لصبره وكثرة إنفاقه.

فلما رأى مَنْ بالقَصَبة من أكابر أهل المَرِيَّة ما دهمهم، وأنّه لا مَلْجأَ لهم إلّا الهرب أو السَّيْف، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، تحيَّلوا وأرسلوا إلى ابن ذى النون، وهُمْ على الهلكة، يعلمونه بما هم فيه وقَطْع رجائهم عن إمداد صاحبهم، ويسألونه أن يتوسَّط أمرهم مع المُظَفَّر، ويأْخذ لهم العَفْوَ، ويخرجُون على سلامة؛ ووعدوه على ذلك، إن هو استنقذهم، أن يُصيِّروا المَرِيَّة مُلْكه. وكان ابن ذى النون من الطمع فى غايةٍ لم يَنْتَهِ إليها مَلِك؛ فطَمِع فى قولهم ذلك، وترامَى على جدِّنا، ورغب إليه؛ فأَسْعَفَهُ، حتى خرجوا وأَخْلَوْا له القَصَبة. وثَقَّفَها بحماة رجاله.

واستنجز ابن ذى النون وَعْدَه، وقال: «إنّ الذى أُريد من هذه البلاد بَسْطَة.» فلم يكن بُدٌّ للمظفَّر من إنجاز وَعْده، وأمر بإخلائها له. وتفتّحت للحاجب بلادٌ كثيرةٌ أَربت على التى انصرفت إليه.

وأرسل إليه ابن صُمادِح بعد ذلك، يسأله العَفْوَ والإغضاءَ على ما كان منه، وأنَّه لا يتعرَّض من ذلك شيءٌ لولا اليهوديُّ، وخوفًا، إن * [ق ٢٤ أ] أهمل البلد، أن يتعدَّى عليه من يخشى داخِلَته. وترامَى على جدِّنا وأتاه بنفسه ليجتمع معه على ذلك، ويجدِّد عقدًا. ففعل وقبل اعتذاره. ويُحْكَى أنَّه عند اجتماعه به، كان أوَّلُ ما خاطَبه به: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾[1] فأجابه المُظَفَّر على البديهة: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[2].

٢٨ - الحركة الموفَّقة التى قام بها باديس لانتزاع مالَقة من يد ابن عبَّاد

ولما صار إلى المظفَّر جميعُ بلاده، وتوطَّدت له الدولة، وكان قبل أَخْذِهِ لوادى آش قد أَخَذَ مالَقة، وقدَّمها قَبْلَ شغْله كله؛ وكان قائدُ عسكره إليها تلك السفرة يحيى بن يِفْران؛ وكان الرجلُ من أكابر تَلْكَاتَة وكان مُطاعًا فى قومه، قد شقى جدُّنا به طول مُدَّة الفتنة. ولمَّا استأسَدَ صِنْهاجة، على ما قدَّمنا ذكره بعد قتل اليهوديِّ، تَرَأَّسَ فيهم يحيى المذكور، ونال من الرئيس كثيرًا فى ماله وعرضه؛ فحقد ذلك عليه؛ وكان عازمًا على أنَّه، إذا انصرف من فتح مالَقة، أن ينظر فى خلعه، ويثور عليه مع بنى عمِّه. وكان الخَبَر قد طرأ إلى جدِّنا. فقضى الله تعالى أن مات يحيى المذكور فى تلك السفرة مقتولًا فى الوقيعة. فقال عند ذلك المُظَفَّر: «أَتَتْنا فى يوم واحد فرحتان: أَوَّلُهما موتُ يحيى، والأخرى فَتْحُ مالَقة!» ثمَّ نهض على المقام إلى وادى آش؛ ففعل عليها ما وَصَفْناهُ.

وكان ابن عَبَّاد قد دخل مدينة مالَقة المذكورة قبل هذا الفتح، وامتنعت له القَصَبَة لمَّا كان فيها من كفاة المَغَاربة، وقائدُها ذلك الوَقْت مَخْلُوف بن مَلول، شيخٌ كبيرٌ من ثِقَاته؛ وانتظروا قوَّةَ الرئيس صبْرًا منهم، وكثرةَ بُقْيَا، وأَنَفةً من كشف لحرمة الذين كانوا بالقَصَبة المذكورة، إلى أن ورد العسكرُ. وخرج إلى مُلاقاتهم من فيها من عسكر ابن عَبَّاد؛ فمُنِحوا عليهم الظفر، ودخلوها عَنْوةً.

وكان حصول ابن عَبَّاد عليها لداخلةِ * [ق ٢٤ ب] أهلها ومَيْلِهم إليه، اختيارًا له علينا، على إحسان المُظَفَّر – رحمه الله – إليهم، وأنَّه وجدهم على أَسْوأ حالةٍ؛ فأصلح من أحوالهم كثيرًا، وحمل فُقَهاءَها ومُقْرِئيها على العَطايا، وأنزلهم على أفضل المَراتب، ما كان مشهورًا عنه فى الأقطار، إذ كانوا قَبْلُ فى حال قلَّةٍ وعلى غير رتبة. ثمَّ كافأوه بما فعلوا. وبعد ظفره بهم، عفا عن ذلك كله، وزاد فى مَراتِبهم. ولقد اخْتُطِبَ لابن عَبَّاد مُدَّةَ كونه فيها؛ وحُكِى أنَّه قيل فى الخطبة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[3] فلم تعْطِ السياسة مُعاقَبةَ أَحَدٍ منهم، إذ كانوا فيه سواءً، ولا يصحُّ إمساكُ بلدةٍ إلا بأهلها. فقرَّ مُلْكُ جدِّنا قَرَارَهُ، وجبر الأموال، وزادت الجبَايات.

(١) سورة يوسف الآية ٩٧.
(٢) سورة يوسف الآية ٩٢.
(٣) سورة المائدة الآية ٣.

٢٩ - الكشف عن أمر فِنيَانة وفِتْنَتها

ولمـا انصرف عـن فِنْيَانَة[1]، غزوتَه تلك الوادِى آشِـيَّة[2]، دعا بقائدَيْـه [النايةِ وعبد الله ابـن القَرَوِىّ] ، وكانا على العسـكر مُـدَّة فِتْنة وادى آش؛ وامتحن علـى أموالهم أين أُنفِقَتْ: أكانت فى واجبٍ أمْ زِيفَتْ، لِماَ استعظم من النفقة؛ وجمع القائدَيْن والكَتَبة، وكشف على ذلك غاية الكشف. وكان النايةُ من أهْلِ التجربة والفكرة فى العاقبة، قد عمل هذا الحساب، وأخرج منه نَفْسَه : فَمتى وردَتْ أموالٌ من غرناطة للعَطَاء، يتحرَّى عنها، ولا يقبض منها شيئًا، ويقول للذى يأتى بها: «احْمِلْها إلى خِباءِ الشيخ عبد الله بن القَرَوِىّ؛ فهو أعْلَمُ بما يصنع، وهو أسَنُّ وأدْرَبُ!» فاحتجَّ النايةُ بهذا الفعل عند المُظَفَّر، وأتى على ذلك بالبُرْهان، وتبرأً منها. وغضب الحاجِبُ على عبد الله ساعَتئذٍ، وأمر بنَفْيه.

وكان أكثرُ الجند يشـنأ النايةَ على ما وَصَفْناه، ويؤْثِر عبد الله لتَرْبِيَته[3] معهم؛ فشقَّ ذلك عليهـم، وأدْرَكَهـم من الأنَفة أن خرجوا كلُّهم حُرْمةً فى عبد الله، وأخْلَوْا *[ق ٢٥ أ] عليه المَحَلَّة. وزال عنهم أكابرُ صِنْهاجة أجمع؛ فلم يصبح الحاجب بفِنْيانة منهم معه أحِدٌ، ورَجَوْا أن يكـون يرغب إليهم، ويفزعونه بتلك الفعلة. فأتى إليه النايةُ يرعد فَرَقًا، وأخبره بالقِصَّة. فقـال المُظَفَّر فى نفســه: «لا خَيْـرَ لى فى ردِّ هؤلاءِ! فإنَّ ذلك ممَّـا يزيدهم طغيانًا، وتجرُّهُم العـادةُ، متـى أحبُّوا الخلاف، على أن يمتثلوا هذه الطريقة. ولا حاجة بى إلى إمسـاكهم، وفى مُضِيِّهم الغنيمة والراحة!» فسـكت عنهم وتركهم على أهوائهم؛ فصاروا فِرَقًا وأشْـتاتًا، منهم من مضى إلى جَيَّان يريد مُسَكَّنًا ابْنَ عَمِّهم، ومنهم من انقطع إلى شَرْق الأنْدلُس، ومنهم من رجع إلى غرناطة على خفاء، يُرَى أنَّه لم يكن فى الجملة.

وأقْلَعَ المُظَفَّر عن فِنْيَانة وأتى غرناطة، لم ينقصه من ذلك شيءٌ، ولا عدم جُنْدًا. واستوزر النايةَ، وبقى على الدَّعة والتمكين دَهْراً طويلا.

٣٠ - استيلاء باديس على مدينة جَيَّان

ولمَّا تمكَّن ماكْسَن من جَيَّان، وثار معه مُسَكَّنٌ مع بنى عمِّه، أَقْلَقَ ذلك جدًّا؛ وخاف النايةُ على نفســه منهم، وجزع من أن يَتَّفِقَ مَنْ هنالك من بنى عمِّهم وسـائر البَرْبَر الذين بغرناطة، ويقتلـوه، ويسـعوا فى ولاية ماكْسَـن. ولم يَرَ المُظَفَّـر – رحمه الله – لمُفاتَنَتـه وَجْهًا، وإنَّ مُسـايَرته ومُداراته أَوْلَى، وإنَّ فى فِتْنَته من العار سـوءِ القالة أن يُقـالَ: «رجع المُظَفَّرُ يُكابدُ فِتْنةَ ابنه، وإن أعياهُ أمْرُ عجز!» فتَرَكَه على حاله، ورأى أنَّ السْـعىَ عليه بالمُداخَلة أوْلَى. والناية، فى ذلك كلِّه، يجدُّ ويَجْتَهِدُ، خوفًا على نفســه، ويَبْذُل الأموال للمَغَاربة، ويرسـل منهم إلى قَصَبة جَيَّان مُتَخَيِّسين مَنْ يُداخِلُهم.

---

(١) أصل: «فتيانه»، وهو تصحيف.

(٢) أصل: «الوادشية» .

(٣) أصل: «لترتيبه» .

openkapalic.com

وكان مُسَكَّنٌ قد أَخملَ عَمَّنا ماكْسَن، واستبدَّ بالرأى، وجمع الأموال دونَه، وصار له ماكْسَن بمنزلة * [ق ٢٥ ب] البازى الذى يُصَيَّد به، وماكْسَن لا يقدر على أكثر من الصبر، إذ لا فِئَة غيرهم، وقنع بتلك الحال لاستنقاذه له من الموت. ورأى إقرارَ روحِه فى جسده غنيمةً، فَضْلاً عن طلب ما سِوى ذلك. فلم يَزَلْ أبدًا يُداخل عليه بالأموال، حتّى استمال جميع مَغَاربة القَصَبة. وكان، مُدَّةَ كونه بجيَّان، يُخاطِبه أقوامٌ من صِنهْاجة فى مَحَبَّته، ويقولون بذلك فى المحَافل والمجَالِس سرًّا وجهرًا، ويرَوْن ولايته خيْرًا من تولية العبيد عليهم واليهود ومن أشْبَهَهم؛ قد سئموا من ذلك، وأشربوا المُظَفَّر من الشنآن والبغضاء ما لو استطاعوا، لَخَلَعُوه. لكنَّ السعادة والمُدّة لم يقطع عليها قاطِعٌ! والرئيس من هذا كله تحت أمْرٍ عظيم، والناية متوقِّعٌ للقتل مساءً وصباحًا، تكثُرُ عليه الأراجيف مع الساعات، إلى أن نجعت تلك المُداخلة: فقام المَغَارِبة بالقَصَبة على ماكْسَن، وخرج منها فارًّا بنفسه، هو وجميع من معه؛ وهرب مُسَكَّن، لا يلوى على شىءٍ، يطلبون النجاة بحشاشة أنفسهم؛ وقع فيهم البهتُ، إذ لم يدروا من حيث أتوا لما سمعوا النداءَ بالليل: «لاطاعةَ إلاّ للمُظَفَّر!» وعجَّل الحاجبُ بثقاف جَيَّان، واستراح من تلك الفِئَة.

ولقد حُكِيَ عن المُظَفَّر – رحمه الله – أنهُ لما تهَيَّأتْ له هذه السعادة، رأى النايةَ مهمومًا. فسأله[1] فى ذلك، فقال: «اهتَممْتُ لخلاص هذه الشرْذِمة بأرواحهم. ولسنا نأمن شرَّهم فى البلاد! «ومِنْ ثَوْرٍ حَيٍّ لا يُلْبَس هَرَاكِيس!» واسْمُ وَلَدِك كبيرًا!» فأجابه المُظَفَّر أن قال: «الذى حلَّ بهم أشدُّ من القتل، لخلائهم[2] عن أوطانهم وكَشْفهم فى انتقالهم بأهاليهم إلى من يتولّى خِدْمَتَهم ويُرْكِبُهم ويُنْزِلُهم. والموتُ دونَ هذا راحةٌ!».

فقصد ماكْسَن إلى طُلَيْطُلة، وصار بها عند ابن ذى النون * [ق ٢٦ أ] مُكْرَمًا، على حال الجُنْديّة. وتقلَّب مُسَكَّنٌ فى البلاد، يخدم الجُنُديّة. وصاروا أبادِيدَ.

٣١ - استيلاء الناية على بيَاسة

وزاد جاهُ الناية بغرناطة، وأَخْمَلَ صِنْهاجة، وأظهر لهم البغض لنفاقهم كان بزَعْمَه على اليهوديّ وعلى الحاجب فى ابنه؛ واستخصَّ بنى برْزال وأَحْسَن إليهم، وقرَّبهم من نفسه، وهُمْ كانوا أولياءَهُ[3] وأنْصاره، وبثَّ فيهم العطايا. وأخلد السلطانُ إلى الراحات.

ثمَّ إنّه، لما فُوِّضَ له الأمْر، رأى أن يجعل لنفسه ذِكْرًا وثناءً يؤْثَر عنه، فى غزو البلاد ومُداخلة بعضها. فانتدب إلى مدينة بَيّاسة، وقال للمُظَفَّر: «إنَّ مُداخلةَ بعض أهْلِها عندى!» وكانت إذ ذاك لوَلَد مُجَاهِد. فقال له الحاجب: «لا تتعرَّض إليها ونَحْن فى دَعَةٍ! وكأنّى والله أرَى تنفُق عليها الأموال، وتُهْلك الرجال، ولا نُحَصِّل على فائدٍ!» فألحَّ عليه وزيَّن له الأمر، حتى أجابه إلى ما سأل، وأمَرَهُ بالمَسِير، وهَيَّأ معه الجيش، وأعطاه الأموال.

(١) أصل: «فقال له فى ذلك».

(٢) أصل: «لخلاهم».

(٣) أصل: «أولياؤه».

فـرَامَ من بيَّاسـة أمرًا عظيمًا: كلُّ ذلـك يتعذَّر من أمْرِها ما لاُ يرجَى به أخْذُها، حتى سـئم السلطان النفقة ومنع منه المال.

وكان فـى المَجْلِـس ممَّن يُطالبه بذلك رجـلٌ كاتِبٌ للمُظَفَّر يُعرف بابـن أَضْحَى، ويقول للحاجِب: «لم تقمْ بيَّاسـة وعشـرةُ أمثالُها ببعض هذه النفقات التـى كُنْتَ عنها فى غِنًى!» وكل ذلـك يتَّصِـل بالناية؛ فيُخْرِج المغايرَ، ويغنم الأغنامَ، ويوجِّهُ بها إلى مولاه ليَجْبُرَ منها بعض نفقاته؛ فكان ابن أَضْحَى يبيعها ببخْس من الثمن، ويحُضر المال بين يديه، ويقول له: «أيـن هـذا مِمَّا أنْفقتَ؟» فيخرج أخلاق المُظَفَّر عليه، فيصبر عليها الناية؛ واستسـلف طعامًا كثيرًا من شيوخ جَيَّان. وكان بانيًا على أنَّه، إن لم يقدر فيها على شيءٍ، أن يكون ذلك طريقَهُ فـارًّا، لا ينصرف إلى غرناطة، إلى أن اسـتفتحها بكثـرة المؤاظبة والمُلازمة، وكانت عليه الصولة على مُطالبيه بذلك. ودخل * [ق ٢٦ ب] المدينة فى عِزّةٍ ورفعةٍ وإكرامٍ من السلطان جسيم، مُهَدَّدًا لمَنْ طالَبَهُ، ومُستَطيلًا بذلك مُعْلِنًا.

وقـدم إلـى المُظَفَّر يقول لـه: «لا أدخُل البَلَد حتَّـى تأمُر بَنْفى ابن أَضْحَـى أو انْصَرِف مـن مكانى هذا!» فرأى الحاجِبُ أن نَفْىَ ابن أَضْحَى أوْلى من فسـاد عسـكره. فأمر بنَفْيه، بعد تَغريمه وإهانَتِه. وخرج من ذلك الوقت ساعيًا على الدولة ومُطالبًا لها إلى زمان ولايتنا، حتى أظفرنا الله به، على ما يأتى ذِكْرهُ بعد هذا.

٣٢ - مؤامرة ضدّ الناية ومقتله

وإنَّ وزراءَ الدولة وكثرةَ عبيدها، لمَّا بصروا بما فعل الناية، والزيادة فى أمْره وجاهِه، وأنَّه هو الحاكِمُ دون السـلطان، حتى قالوا إنَّه طامعٌ بالرياسـة والقيام مع بنى بِرْزَال، وشنع ذلك عليه، أدركَتْهُم منه أَنَفَةٌ عظيمةٌ وحسـدٌ شـنيعٌ. فاتَّفق رأيهم أجمع، أعنِى ولاةَ البلاد: منهم وَلَدُ القَاضِى، صاحِبُ باغَه وابنُ يَعِيش، صاحِبُ قَبْرة، ووَاصِل، صاحِبُ وادىَ آش، والقاضى ابنُ الحَسَـن النُّباهـىّ بمالقة، أنَّه متى قدِم إحـدى هذه الجهات، قُتِلَ فيها، وأُرْسِـلَ فى ماكْسَن - وقُدِّم - أراد والِدُه أم لم يُرِدْ.

ثـمَّ إنَّ النفر المذكـور عملوا رأيهم، وفكَّرُوا فى العاقبـة. ورأوا أن يقتله واصِلٌ العِلجُ بوادى آش؛ [فيكون ذلك] أسـتر لقتله وأبعد للظنِّ بهم: فإن عاقبَ، عاقَبَ عُلامَه وتَبَرَّأوا من ذلك. فوُعِد واصِلٌ المذكور على ذلك بالوزارة مكانَهُ؛ وضمنوا له توْطيدَهم للأمر عند السلطان، حتى تهيَّأ ذلك فى دماغ العِلْج، واستعدَّ لقتله، إلى أن حدث بوادى آش أمْرٌ لم يكن بُدٌّ للسلطان أن يرسل وزيره فيه، من تحصيل أموال والكشـف على أحوال. فنهض فى أنحس وقتٍ وأشَـرِّ قدَر. وكان واصِلٌ هذا المذكور من أكبر صنائع الناية، وممَّن اصْطناه بإحسـانه، وشـرَّفه عند السلطان، ورفعه من الحضيض. ففشَا الأمْرُ عند الناس قبل ذلك أنَّ واصِلاً عازمٌ على قتل الناية.

وحكى لى إنسـانٌ من البَرْبَر * [ق ٢٧ أ]، قال: «نصحتُه بذلك وحذَّرتُه أن لا ينهض إليه، وأنَّ مِثله لا ينزل فى داره؛ فكان من جوابه: «تريدون أن تنزعوا الرَّيبَ من أنفسـكم وتُردُّوها على

أصدق الناس إلىّ!» فلمّا توجّه إلى وادى آش، ونزل فى منزل واصِل، أظهر له إكرامًا وتَبجُّلًا لم يكن عليه قَبْل، حتى اطمأنّ، وانصرف عنه أعوانُه. ولمّا دخل الليل فى جَنّه، أتاه واصِل برمحه، وهو سكران؛ فضربه ضربةً أنفده بها، حتى أثّرت الضربة فى الحائط؛ وقطع رأسه وطوّفه صبيحة الليلة [بأزقّة مدينة وادى آش ومُنادٍ ينادى] : «هذا جزاءُ من طلب ما لا يعنيه».

فورد الخبرُ فجأةً بغرناطة وبُهِتَ له الناس؛ ولم يَدْرِ أحدٌ من حيث أُتِىَ، فمنهم من يقول: «السلطان دسّ إليه، إذ لا يمكن لذلك العِلج أن يتعدّى!» وبلغ ذلك من السلطان مبلغًا عظيمًا، وعَلِمَ أن هذا من اتّفاقٍ عليه؛ ودخل منه فى بحر طامس، حتى أسهر لياله وامتنع من لذّته. وأظهر للناس تجلّدًا، وهدّده الجند، وأرسل إلى واصِل بالأمان، يأمُرُه بالقدوم عليه، ويشكره فيما فعل، سياسةً منه وتوطيدًا إلى أن يستبرئ كيفيّة الحال، وينظر لها على مهل. فزاد بذلك العِلْجُ حماقةً، وقال مُعْلِنًا: «لم أُدْخِل يدى فى هذه القضيّة وحدى، حتى يساعدنى عليها من لا يُنال بهم عن أحدٍ!» وأتى مُشترطًا للوزارة. وكلّم وَلدُ القاضى المظفّر فى أمره وقال له: «إنّ هذا العبد، وإن جنى عليك فى قتل وزيرك، فإنما فعل حُبًّا منه فيك ورغبةً فى قُرْبك؛ وهو أحقُّ من ذاك إذ هو تربيتُك!» وجعل [أهل] الدولة يعتنون به ويسألون العفو له. فأحسّ السلطانُ ذلك فى نفسه، وأيقنَ أنّ هذه النّصْبة لم تكن إلاّ عن اتّفاق عليه، وحسب نفسه مخلوعًا لا محالة. فإنّه، ساعةَ ما قُتِلَ النّاية، أرْسِلَ عن ماكْسَن إلى طُلَيْطُلة، ووُجّه [ق ٢٧ ب] إليه بخاتم النّاية كَىْ يتحقّق قتلَه، وقيل له: «ليس بغرناطة عليك مختلفٌ ولا من يصُدُّك!» إلّا أنه لم يتجاسر حتى يَرَى إلى ما تؤول الأحوال. فكظم الحاجب هذا فى نفسه، واحترق له قلبه؛ ودارَى جميعَهم، وصوّب فعلَ واصِل، وقال: «هذه نارٌ موقدةٌ ليس ينقذنى منها إلا إطفاؤُها والنظر لها على سَعةٍ!» وأمَرَ بتقديم واصِلٍ على الخَيْل.

٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ماكسَن ورجوعه إلى الحضرة

واتّفق رأىُ الجميع، مع بعض أهل قصره من النساء، أن يُدخَلَ عليه ابنُهُ، ويُخلَع من أجْله على كلّ حال. فلما رأى المُظَفّر اتّفاقهم عليه، وأحسّ بهذه المصايب، ولم يَرَ لنفسه مع من يستريح، أرسل فى أبى الربيع النصرانىّ، وكان فيما مضى كاتِبَ حَشَم، قد عرف خدمة اليهودىّ وتصرّف معه؛ فأرسل عنه سرًّا، وأتتْ كُتُبُه قبل ذلك، فراجَعَ عنهّا بخطّ يده. فكان ذلك زيادةً فى الشرّ وخبالِ الدولة. فلمّا أحسّ بهذا وَلَدُ القاضى صاحبُ باغه، شافَهَ المظَفّر فى الأمر وقال له: «إن كنتَ تعزم على أبى الربيع، فنحنُ لا نبقى معك، ولا يلتوى أحدٌ حوالَيْك!» فأجابه: «ألاَ أبقى الله منكم أحَدًا!» وضيّع الحزم فى هذا. لاسيمّا أنه قد عَلم أن بيده مدينة لا يملك منها معه شيئًا؛ فعملت فى نفس صاحب باغه وأهل الدولة. وتغيّرتَ الأنفس، وكثر الإرجاف. واتّفق مع صاحب قَبْرَة، وكان صديقه قديمًا، إلى أن ورد أبو الربيع.

فاستراح إليه المظفّر على المقام، وأعلمه بما حلّ به. وأتاه المذكورُ من دَانِيَة، إذ كان بها من وقت قتل اليهودىّ. فقال له أبو الربيع: «قد أيقنتُ أنهم أرسلوا عن ابنك، ولا مختلف عليه.

ولا قـدرة بك على مُكَابرة العامَّة والخاصَّة! فالرأى فى ذلك والحيلة أن تتلافى الأمر، وتوجِّه فـى ابنك، وتكْتُـبَ إليه بخطِّ يدك بالعفو عنه وإيثارك له علـى كلِّ والٍ لم يَصلُح لك، وأنك مقدِّمُهُ * [ق ٢٨ أ] لولايتك ومورِثُهُ مُلكَك. فإنك، إن فعلتَ، هَدَّنْتَ قلوبَ هذا العالم وتَقَمَّنْتَ مسرَّتهم[1]. فإذا وصل ولدُك بين يديك، كنتَ فى أمره بالخيار، وتخدَّمتَ قصَّته على سعة: فمُكابَدَتُه، وهو معك، خيرٌ من مُكابَدَة شرِّه مع بُعده! ولستَ تأمَن مَكرهُ حيث ما توَجَّهَ!».

فرضـى المُظَفَّـر ذلك من قوله، وأرسـل على المقام عنـه فقيهًا كبيرًا مـن فُقهائه يؤمِّنه ويوطِّـده، ويبشِّـره بمَذْهَب أبيه واسـتخلافه لـه، وأنه ليس فى الدولة مـن بنيه من يُرْجى لهـذا الأمر سـواه، وكتب إلـى ابن ذى النون يرغب فى تسـريحه إليه. فسـرَّ بذلك جميع الناس، وانصرفت نفوسُـهم عمَّا كانت عليه، وطفِّف العالَم فى محبَّة ماكْسَـن، ورجَوْا الخيرَ معه، إلى أن وردَ فى أنحَس طالع وأنكَدِ جدٍّ.

فأَنَسَـهُ أبوه، وبذل له الأموال، وجعل يوصِّيه بوَصايا لم تنفعه، أراد بذلك ضُرَّه وانصرف نفوس الناس عنه. فأوَّلُ ما أمره به بالشـدَّة والفظاعة، وبغَّض إليه صِنْهاجةَ، وقال له: «أنت تعلم ما شـقيتُ أنـا بهم بعد حَبُوس! فَصُلْ عليهم ليهابوك، وليـس فى الدَّولة غيرك إلَّا بنى أخيك: فهم أطفال صغار!» وكان ماكْسَـن من السفه وعَجْز الرأى وقلَّة الفطنة بحيث لم يَخْفَ على أحد. فزاد على ذلك أضعافًا مضاعفةً. ووافق سوءُ طبعه مَقالةَ أبيه؛ فتحكَّم الشرُّ فيه، ولم يقدِّم شـيئًا على شـتم الناس والاسـتهزاء بهم؛ ومن العجب أنه كان أبغض العالم فيمن أحبَّه وسعى فيه؛ فجعل يبلغ من أعراضهم وتكليفهم ما لا يطيقون وما انصرفت نفوس العالم فيه إلى البغضة، وتبيَّن لهم من قلَّة عقله؛ وأجمَعَ * [ق ٢٨ ب] الكلُّ على ألاَّ خَيرَ فيه يُرْتَجى.

وكانـت بنت عمِّه أُمُّ العُلُوِّ طامعةً بزواجه؛ وكانت مُطاعةً فى قوْمها: قد اسـتمالت أكثر نسـاءِ الجُنـد؛ فأوَّلُ مـا ابتدأ بتهجينها وَشَـتْمِها، وأنَّها فيما يزعم لا تصلـح له. فزاد ذلك فى نحسـه والسـعْى بكلِّ وجْهٍ عليه. وكانت كريمةُ المُظَفَّر السـاعية فى خبره يعد سـعيها فـى قتل أُمِّه، قد أغارت من أن يكون ماكْسَـن يزوج بنت عمِّـه، حِذْرًا منها أن تجعل منها حاشِـيَةً وتمنع حرمَتَه. واتقَّى من ذلك واصِلٌ وامرأتُه؛ فقالا[2] لها «أىُّ فائدة لك فى زواج أمِّ العُلُوِّ؟ لكنَّ الأَوْلى بكِ أن تعطيه صَبيَّةً من تربيتِك، تكونين[3] من أجلها حاكمةً على داره!» ففعلَـتْ ذلك وأخرجَتْها إليه بأموال، وصوِّرت عند السـلطان أنهـا تُوفِّيت، لئَّلا يطلبها فى قصره، باسْم أخرى ماتَتْ عندها.

وشـقَّ على بنت عمِّه ذلك كلُّه، ورجَعت تسـعى عليه مع نساءِ البربر، وتدخل بين امرأة واصل المذكور، وبين كريمة الحاجب، وتقول لها: «إذا أرَدتِ الانفراد بماكْسَـن، فما حمل امـرأة العِلْج على السـكنى معه؟» فمُنِعـت الدخول إلى داره؛ فأنفت لذلـك. وكان مع ذلك

(١) أصل: «سارهم».

(٢) أصل «فقالوا».

(٣) أصل: «تكون».

زوجُهـا وَاصِـلٌ يؤْثر عليها صبَّيةً كانت لها، ويؤْذيها مـن أجْلها. فاجتمع على المرأة الغيرةُ والأنفـةُ لمِاَ طُردت عن دار ماكسَـن؛ فلم تلبث أن مضت إلى أبـي الربيع النصرانيّ: وقالت لـه: «أنـا أَمَـةُ المُظَفَّر: فَلْيَنْظُر من نفسـه! فإنَّ الاتِّفاق عليه على وجه كـذا وكذا!» وبيَّنتْ جميع ما راموا من غدره. فأَتى أبو الربيع إلى الحاجب مسرورًا، وقال له: «أُنْظُرْ كيف تبتدى سعادتُك فى تشتيت هؤلاء القوم! أخْبرتنى امرأةُ واصِل بكذا وكذا! ألَم أقُلْ لَك[1].....؟».

* * *

(١) إلى هنا انتهى ما هو موجود فى نسخة «مذكرات الأمير عبد الله» الوحيدة من تاريخ دولة باديس بن حبوس جد المؤلف.

obeikandl.com